

البناء

الأحياء القديمة في دمشق... باقية على رونقها وألقها رغم الإرهاب



...ومن أبنيتها العريقة



جانب من حي ساروجة

لورا محمود

يقول المؤرخ ابن عساکر في كتابه الشهير «تاریخ دمشق»، «إن ثاني مدينة بُنيت على الأرض بعد طوفان نوح هي دمشق». وبُنيت ابن عساکر من خلال عشرات الروايات عن بداية إعمار دمشق وبناؤها، أنّ هذه المدينة احتضنت على مرّ العصور حضارات عريقة أتت الرحيل من دون أن تترك آثارها في شوارع المدينة وأزقتها القديمة. الأمر الذي ربما يفسّر سرّ المتعة التي يشعر بها السائر في شوارع أقدم مدينة ما زالت ماهولة في العالم وحاراتها.

حي ساروجة

وفي دمشق أحياء عداً ما زالت تحافظ على تراثها وتسمياتها. ومنها حي ساروجة. وأنت التسمية من الكلمة التركية «ساريجا»، التي تعني اللون الأصفر. ويذكر بعض الباحثون أن اسم الحي منسوب إلى أحد قادته، وهو صارم الدين ساروجة المتوفى عام 1342 ميلادياً، إذ يزيد عمر الحي على 600 سنة. احتل الحي مكانة مرموقة، فكان مجالاً للتنافس بين الأمراء المملوكيين الذين تنسابقوا لبناء المنشآت فيه، فشيدوا المدارس والجامع والحمامات التي لا يزال الكثير منها قائماً حتى الآن. وكانت «المدرسة الشامية البرّانية» أساساً لإنشائها، حيث أخذ الاتساع حولها تدريجياً حتى اكتمل وأصبح له سوق خاص في عهد الأمير سيف الدين تكتك، الذي مكث في دمشق طويلاً، والذي ترجع إليه الكثير من الآثار المعمارية.

حي ساروجة كان أول منقلبة من دمشق بنيت خارج أسوار المدينة في القرن الثالث عشر الميلادي، فببوت ساروجة وحماماته ومساجده تشكل واجهة للفن المعماري لحقبة جديدة من تاريخ دمشق، وما زالت أبواب «مسجد الورد» مفتوحة منذ بنائه قبل 600 سنة، وكذلك «حمام الورد» المجاور له. وتوصف بيوت الحي بالقصور، فالمنزل من الخارج لا يلفت الأنظار بواجهته وبابه، غير أنه في الداخل يضم باحة تزيينها نافورة ماء في الوسط وشجرة ليومن في إحدى زواياها ما يخلق جواً يمتزج فيه الضوء والنضارة ويحيط بالباحة من جهاتها الأربع بنناء من طابقيين.

وتعود تلك الحقبة إلى الأيوبيين من سلالة صلاح الدين والإتراك المماليك الذين هزموا المغول في معركة عين جالوت عام 1270، وشهد الحي أثناء حكم العثمانيين ابتداء من القرن السادس عشر زيادة في وفود الأعيان للسكن فيه. وقد حافظ حي سوق ساروجة على مكانته كحي راق حتى انهيار الإمبراطورية العثمانية مطلع القرن العشرين. بعدما تم إنشاء هذا الحي من قبل المماليك، تعرض للتخريب نتيجة صراعات الأمراء في الفترة المملوكية، ما أدى إلى دمار «المدرسة الشامية البرّانية» برمتها وازداد الحال سوءاً بعدما احتل تيهورلنك دمشق، فقد أصبح مكان الحي قاعدة لمجنّباتها التي كانت تصف قلعة دمشق. ولم يبق الأمر عند هذا الحي، فقد قام تيهورلنك بإحراق دمشق بما فيها حي ساروجة قبل أن ينسحب منها.

يختلف حي سوق ساروجة من المحور الرئيس وهو السوق أو السويقة ويتفرع عن هذا المحور عدد من الحارات التي يتفرع عنها أيضاً عدد من الدروب والأزقة الثانوية. لم تكن منقلبة ساروجة تاريخياً تحتل مركز المدينة أو وسطها، فهي تقع خارج أسوار المدينة وإلى الشمال الغربي من قلعة دمشق. أما من الشرق فتحدها العقبية والعمارة البرّانية (سوق الهال القديم) ومن الجنوب البحصّة والسنجقدار. ومن الغرب البحصّة البرّانية.

كان هذا الحي يشكل مع جواره تكاملاً عرانياً هاماً، خصوصاً بالنسبة إلى التطور العمراني والتاريخي لمدينة دمشق. كما أن الحدود التي كانت تفصل بين منقلبة ساروجة والمناطق الأخرى المجاورة لها كالعمارة والبحصّة كانت حدوداً غير واضحة وتخلب عليها صفة الحدود الإدارية والاجتماعية.

أما المحور الواصل من باب العمارة في المدينة القديمة إلى العقبية فسويقة ساروجة، فيعتبر أحد المحاور التاريخية الهامة في دمشق، حيث كانت هذه الأحياء الموجودة خارج الأسوار تتصل من خلاله مع أسواق المدينة وجامعها الكبير. إن الدخول إلى هذه الأحياء كان محذاً ببوابات معينة، فقد كانت لساروجة بوابتان تسع بالدخول مباشرة إلى هذا الحي، إحداهما كانت بوابة الصالحية وهي التي كانت تصل بين ساروجة ومحلة الصالحية وبساتينها. وبوابة أخرى من الجهة الشمالية الغربية هي بوابة «عين الكرش» التي كانت تصل إلى منقلبة البساتين والأراضي الزراعية.

لم يكن هناك أي منفذ مباشر لساروجة من البساتين المحيطة وكانت كما هو معروف تفتح دوماً على أفتينها، كما تفتح أبوابها على أزقة الحي بينما تدير ظهرها للبساتين ومن هنا جاءت تسمية «قفا الدور»!

ضمّ حي ساروجة في القرن التاسع عشر الميلادي إضافة إلى الدكاكين والبيوت السكنية التقليدية ثلاثة حمامات (الورد - الجوزة - الخانجي) إضافة إلى حمام «القرماني». كذلك وجدت أربعة أفران وخمسة عشر مسجداً أو مصلى وطاحونة وعدد وفير من السبل والأضرحة أو التراب، كما كان يوجد مقهى إلى جانب حمام «الجوزة». إلا أن علاقة هذا الحي مع المدينة داخل الأسوار كانت علاقة قوية سواء من الناحية الإدارية أو الاقتصادية أو الدينية. إضافة إلى علاقتها مع باقي الأحياء المجاورة، خصوصاً العقبية والبحصّة والسنجقدار والشرف الأعلى، لا سيما في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

مع انتهاء العصر المملوكي وبدء الحكم العثماني لدمشق، أخذت ملامح الحي والسوق تتبدل، ونظراً إلى وقوع الحي خارج سور المدينة القديمة، فقد تميز بسوقه الكبير ومنازله الواسعة وحماماته ومساجده الفخمة. وهذا ما دفع رجال الدولة العثمانية إلى التمرکز فيه بعد أن أجلاوا العائلات المملوكية منه واطلقوا على الحي اسم (اسطنبول الكبرى) نسبة إلى الطبقات الأرستقراطية العثمانية التي كانت تقطنه.

في حي ساروجة مجموعة من المشيدات الأثرية التي تعطينا صورة حيّة عن تاريخ الحي، ومنها «المدرسة الشامية البرّانية» التي اكتسبت شهرة واسعة حيث كان الأمراء والعلماء يقيمون حفلات رسمية عند افتتاحها وإغلاقها. و«جامع الورد» المعروف باسم «برسبای» نسبة للأمير المملوكي برسبای الناصري نائب حلب وطرابلس في العهد المملوكي الذي شيد سنة 1426، والمدرسة المرادية البرّانية التي أقيمت في منزل الشيخ مراد علي البخاري، و«حمام الورد» ويقع خلف جامع «برسبای» حيث يُعتقد أن الأمير صارم الدين ساروجة هو من بناه.

وهناك مسجد الوزير الذي بناه الوزير أبو علي طاهر بن سعد المرزقداني وزير أمير دمشق ظهير الدين طغتكين، الذي حكم دمشق آنذاك. ولم يبق من هذا المسجد اليوم إلا الكتابة الكوفي.

السنجقدار

عرفت المنقلبة الممتدة من مدخل سوق الحميدية وإلى جسر الزرابلية فمدخل ساحة المرجة، باسم السنجقدار، وتعود هذه التسمية إلى جذور ترتبط بالعهد الذي كانت فيه منقلبة دمشق منطلق ركب الحجّ الشامي إلى الديار المقدسة في مكة والمدينة المنورة.

وقد أرادوا بالسنجق «العلم»، والمقصود به علم النبي، وكان يسمى «العقاب»، وكان يحفظ في دمشق، ذلك أنه انتقل إلى الأيوبيين ثم إلى العباسيين ومن بعد إلى الفاطميين بالقاهرة، وأعيد إلى دمشق زمن السلطان سليم الأول بعد القضاء على دولة المماليك بالقاهرة.

ونقل إلى اسطنبول بفعل الصدر الأعظم سنان باشا، ووضع عليه حماية في غرفة خاصة من الباب العالي. ثم أصبح الاحتفال في دمشق بالسنجق العثماني عوضاً عن سنجق النبي، ويكون في هذا الاحتفال في اليوم الرابع من شهر شوال من كل سنة هجرية، فيخرجونه «السنجق» من القلعة على جمل خاص مزدان بهذه المناسبة، ويسمك بهذا الجمل أيضاً موظف خاص بلباس (هندام) خاص، وكانت الجماهير تحيط بهذا الجمل اعتقاداً منهم أنّ لعن ذلك الجمل يجلب الخير والبركة، فيسير في مقدمة الموكب الموسيقي والمؤننون وعموم صنّاجق الألبات العسكرية بدمشق، ويكون خروجهم بعد صلاة عصر اليوم الرابع من شوال من باب القلعة الغربي المعروف باسم باب البوابجية في سوق ساروجة قبل أن ينتقل سوق ساروجة إلى موقعه الحالي، ويكون مروره بمصاحبة محمل الحج من الدرويشية فالساقية ثم إلى شارع البدوي الواصل بين الساقية وحي الشاغور، ثم إلى باب كيسان وإلى باب شرقي، ومن بعد إلى مقام الشيخ أرسلان الدمشقي، فعلى برج الروس والسادات والعمارة والأبارين مروراً بساروجة، فإلى أسفل حدره جوزة الحدياء قرب جامع «يلبغا» فإلى السرايا، حيث يكون والي دمشق أو من في حكمه بالاستقبال.

وتكون المواقع التي يمر فيها السنجق في هذه البوردة مزدهمة، خاصة بالأملين، خصوصاً من قدم منهم من الأندلس السورية احتفالاً بهذه المناسبة. وبالطبع فإن أشغال مدينة دمشق تتعطل جميعها عدا باعة الماكولات.

وإذا تساءل أحدنا عن سبب تسمية «سنجقدار»، فيمكن القول إن ذلك يعود إلى الدار التي كانت تحفظ بها عوائد موكب الحج الشامي إلى حين انطلاق ركب الحج الشامي إلى الديار المقدسة المعروف باسم «الكلار».

كما أطلق عليها «المرجة» اسم عين ألقصارين، لوجود أرض خضراء معشوشبة على أطرافها، وهذه الأرض محفوفة بأشجار الحور والصفصاف وكان القصارون الذين يمتنون حرفة اكساب القماش بياضاً ناصعاً، كان هؤلاء يأتون بالقماش فينشرونه على العشب، ويرشونه بالماء مراراً وبواسطة عصا طويلة تنتهي بعبوة يغرغرها من ماء النهر ويرش ذلك القماش الممدود على العشب، حتى يقصر

أن خصّص لوزارة الداخلية والتي لم تزال تشغله حتى الآن. لقد كان طراز بناء دار الحكومة مطابقاً لطراز دار البلدية، وهو الطراز الكلاسيكي الحديث، المنتشر آنذاك في فرنسا والمطور والمبسط عن الروماني القديم، وهو دليل على أن الفنين الأجانب قد نقلوا إلى دمشق الطراز المعماري الذي كان سائداً في بلادهم، والمختلف تماماً عن الطراز الذي عرفته دمشق في بناء قصر العظم، وقصر السعادة، وقصر كتّج. لقد امتد بناء هذا الطراز إلى بناء دائرة الشرطة وطبابة المركز المحاذية لدار البلدية. وبينهما كان كشك عثماني الطراز لبيع الطابع المالية والتبغ وغيرها.

عام 1900، فكر السلطان عبد الحميد بتأثير من الألمان بإنشاء خط حديدي يمتد من المدينة المنورة إلى دمشق الشام ويصل إلى اسطنبول ومنها إلى أوروبا. واستقبل الوالي ناظم باشا في دمشق أمر السلطان بلهفة، فقام بالإشراف على بناء الخط من الأموال التي خصصت لذلك ومقدارها 283 ألف ليرة ذهبية، واستطاع الوالي أنّ يقصد بالإتفاق إذ كلف الجنود بأعمال البناء فقام بتنفيذ منشآت مهمة مستعيناً بالمهندسين والفينيين الألمان والنموسيين الذين قدموا إلى دمشق لتنفيذ المشروع. وحين تم إنشاء الخط الحديدي عام 1907 وتم في السنة نفسها تدشين خط الاتصالات البرقية بين دمشق والمدينة المنورة، وفي هذه المناسبة، أقيم النصب التذكاري في وسط ساحة المرجة، والذي لم يزل قائماً حتى الآن، وهو مصنوع من البرونز وفي أعلاه مجسم لجامع يلدز أشهر جوامع اسطنبول، وقام بتصميمه فنّان إيطالي.

كان ذلك تأكيداً لأهمية هذه الساحة ومركزيتها. وهذا النصب مؤلف من عمود ضخم تعلوه قاعدة عليها مجسم جامع يلدز الخاص بالسلطان، وتلتف حول العمود أسلاك رمزاً للاتصال البرقي بين المدينة المنورة ودمشق دعماً لعمليات النقل بطارات خط الحجاز.

ويبقى من أهم وأعرق الأبنية القائمة حتى الآن في ساحة المرجة، بناء العابد الذي أنشاه أحمد عزت باشا العابد ثاني أمناء سر السلطان عبد الحميد الثاني. وأشرف على تنفيذ البناء وتصميمه المهندس الإسباني فرناندو دي أرنابدا عام 1908، وانتهى من إنشائه عام 1910. وبذلك تركزت هذه الساحة مركزاً جديداً للسياحة، وفيها تراحت وسائط النقل من عربات خيل ودواب. ثم في أيامنا هذه الباصات والسيارات والمحال التجارية.

قد تكون ساحة المرجة سجلاً يومياً لتاريخ دمشق، فقد شهدت المرجة أحداثاً سياسية مهمة وكوارث طبيعية، وسجلت تطور دمشق، ففي عام 1916 شهدت قيام جمال باشا السفاح بإعدام رجالات سورية ولبنان في 6 أيار من عام 1916. وقد أطلق على المرجة في ما بعد اسم «ساحة الشهداء» تخليداً لتكري هؤلاء الشهداء، كما كانت المرجة شاهداً على بطولات رجالات سورية أثناء الثورة السورية الكبرى التي قادها سلطان باشا الأطرش، فقد كان المستعمر الفرنسي يجمع جثث الشهداء ويلقي بها في ساحة المرجة بغية نشر الرعب في نفوس المواطنين.

وفي العصر الحديث، شهدت المرجة إعدام الجاسوس «الإسرائيلي» إيلي كوهين. ومن الكوارث الطبيعية التي شهدتها الساحة طوفان نهر بردى المتكرر الذي كان يسمى (الزورة أو الفيضان)، على إثر الأمطار الغزيرة التي كانت تعم دمشق. وكان المرجة تشكل قلب دمشق، فلت لعقود طويلة في القرن الماضي المكان الرئيس لانطلاق وسائل النقل بدءاً بالدواب (الجمل والأحصنة) إلى حافلات النقل الجماعي.

فكانت المرجة مركزاً لانطلاق عربات الخيل «الحنطور»، والتي كانت تقف حول الحديقة الصغيرة التي تحيط بالعمود التذكاري. ثم أضحى مركزاً للحافلات الكهربائية «الترامواي» والسيارة. تعرضت ساحة المرجة للإرهاب خلال السنوات الماضية، فقد فجر إرهابيون سيارات مفخخة بكيمات كبيرة من المتفجرات في منقلبة المرجة ما أدى إلى استشهاد 14 مواطناً وجرح عشرات آخرين والحاق أضرار بمرج دمشق التجاري وجامع فضل الله البصيري وفنقد عمر الخيام ودائرة الآثار التابعة لريف دمشق، كما تعرضت الساحة لعشرات قذائف الهاون ما أدى إلى استشهاد العشرات من المواطنين الأبرياء وجرح المئات.

ساحة المرجة لها المكانة المميزة في قلوب كل السوريين، وترتبط بتاريخ سورية، ولها قصص وحكايات قد تبدأ ولا تنتهي. ساحة المرجة رمز دمشق الخالدة وأحجارها تنبض بتاريخ شعب أبنّي أحب الحياة، وأحب دمشق، وتروي ساحة المرجة على مر الأيام والسنين أسطورة خالدة في حب الوطن. وتبقى سورية بلاد الشمس في وجه أطعامهم وأجرامهم عالية الجبين شامخة تعانق الأفق الربح محبة وحضارة وقوة.

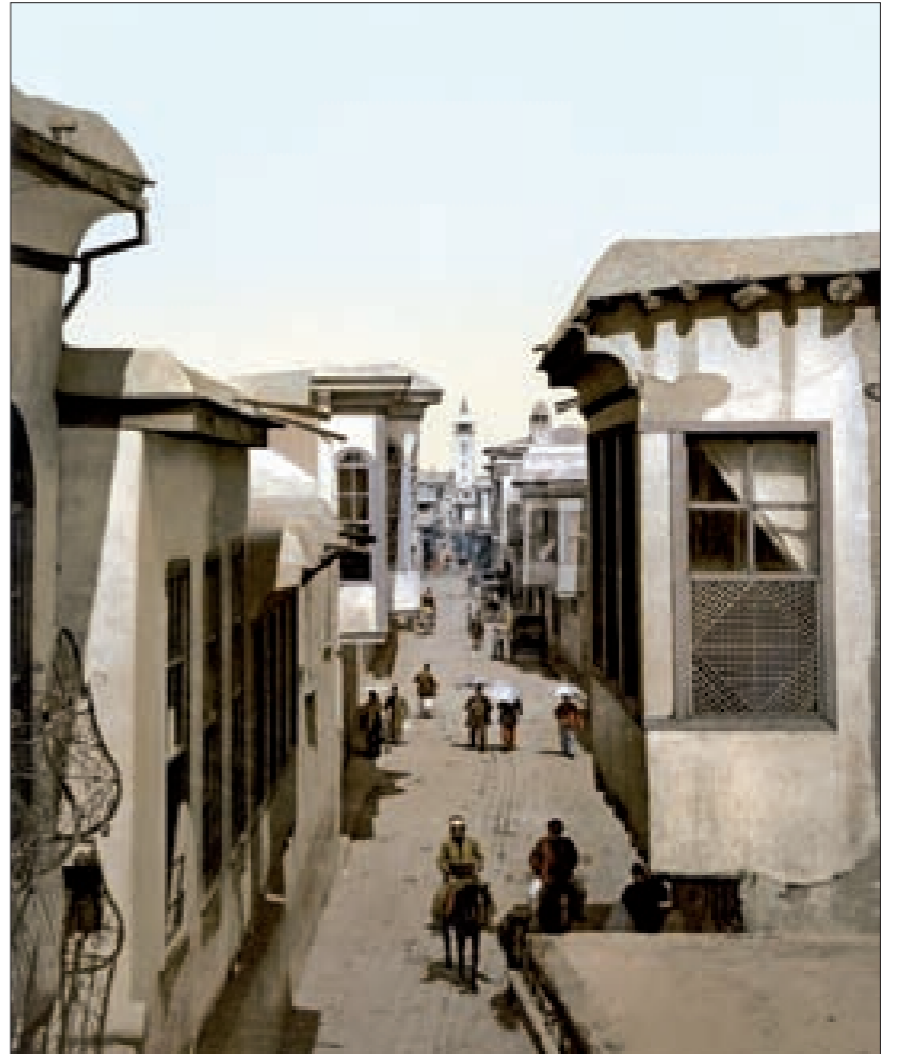
كان الوالي العثماني ناظم باشا قد انشا بناءً ضخماً خلف بناء دار البلدية «لم يزال قائماً حتى الآن» هو دار الحكومة والسرايا عام 1900 الذي أصبح مقراً للولاة عوضاً عن قصر كتّج يوسف باشا. ثم صار مقراً للحكومة العربية الأولى زمن الأمير فيصل (1918 - 1920) ثم استمر مقراً للحكومة في عهد الاستعمار الفرنسي. إلى



...وساحة المرجة



...وحي سنجدقار



حي ساروجة قديماً